

## السماع في الفكر الصوفي والعرفاني: دراسة في المكانة والدلالة

د. عبد الرؤوف مخلص - أستاذ مشارك - قسم التعليمات الإسلامية بكلية الشريعة - جامعة هراة - أفغانستان.

---

العدد: 2

المجلد: 6

تاريخ نشر البحث: 2026/02/11

تاريخ استلام البحث: 2026/01/17

---

### الملخص:

السماع من المصطلحات الجدلية والمعقدة في العرفان والتتصوف الإسلامي. يحمل هذا المفهوم معاني ومقاصد متنوعة، يجمع الجميع على جواز وتأييد بعضها؛ كما هو الحال في سمع القرآن الكريم. أما سمع الشعر فهو من القضايا التي يمكن إبداء الرأي فيها مع مراعاة المحتوى وطريقة أدائه، ومن يقرؤه وكيف، وما هي حالة المستمع وصفاته، وما الهدف الذي يسعى إليه. وأكثر أنواع السمع إثارة للخلاف هو ذلك السمع الذي يُقرأ فيه الشعر بصوت حسن مصحوباً بآلات اللهو والموسيقى، حيث قدّم الفقهاء والعلماء الدينيون وكذلك كبار الصوفيين آراءً متباعدة في هذا الشأن - مع مراعاة الأحوال والصفات والأوقات والمناسبات - مما يبرز مدى تعقيد الموضوع، وأهم وأعقد أنواع السمع وأثارها إثارة للخلاف هو السمع المصحوب بآلات الموسيقى باعتباره "سماع الصوفية"، الذي اعتبره البعض عبادة ووسيلة للتقرب. مثل هذا السمع مرفوض تماماً عند الفقهاء، كما اعتبره معظم كبار الصوفية غير جائز ومكرهًا؛ باستثناء قلة رأت إباحته وذلك تحت شروط خاصة.

**الكلمات المفتاحية:** السمع، الغناء، الطرب، الوجود، الشعر، التتصوف، العبادة.

---

## Samā' in Sufi and Mystical Thought: A Study of Its Status and Significance

Dr. Abdul Raouf Mokhles – Associate Professor, Department of Islamic Studies, Faculty of Sharia, Herat University, Afghanistan.

**Corresponding Author:** D.Abdul.Rauf. Mokhles **E-mail:** ab.rauf.mokhles@gmail.com

---

RECEIVED: 17 January 2026

PUBLISHED: 11 February 2026

DOI: 10.32996/ijcrs.2026.6.2.1

---

### Abstract

*Sama'* (spiritual audition/listening) is one of the most debated and complex concepts in Islamic mysticism and Sufism. This term encompasses a variety of meanings and objectives, with universal agreement on the permissibility and endorsement of some of its forms; such as listening to the Noble Qur'an. Listening to poetry, however, is a matter on which opinions can be expressed, taking into consideration the content, the manner of its performance, who recites it and how, the state and qualities of the listener, and the goal he seeks. The most controversial type of *Sama'* is that in which poetry is recited in a melodious voice accompanied by instruments of entertainment and music. Jurists, religious scholars, and leading Sufis have presented diverse opinions on this matter – with consideration given to circumstances, qualities, times, and occasions – highlighting the complexity of the subject. The most important, complex, and contentious type of *Sama'* is that which is accompanied by musical instruments, presented as "*Sama'* of the Sufis," which some have considered an act of worship and a means of drawing closer to God. Such *Sama'* is entirely rejected by jurists, and most major Sufis also deemed it

impermissible and reprehensible (*makruh*); except for a few who considered it permissible, and that too under specific conditions.

**Keywords:** *Sama'* (Spiritual Audition/Listening), *Ghina'* (Singing), *Tarab* (Musical Ecstasy/Emotional Excitement), *Wajd* (Ecstatic State/Spiritual Rapture), Poetry, Sufism, Worship.

#### المقدمة:

من بين المفاهيم والمقولات التي نوقشت في التصوف والعرفان الإسلامي وأثارت الجدل، فئة السمع. والسماع كلمة عامة يمكن أن تضم مصاديق متعددة، وقد قدم كتاب الصوفية وأهل العرفان آراءً مختلفة حول كل نوع منها؛ كما قدم فقهاء الإسلام آراءً متعددة في هذا الصدد.

ويتنوع آراء هؤلاء الكبار، من جهة، بسبب مناهجهم الفكرية، ومن جهة أخرى، نتيجة تأثيرهم بمصادر وأفكار الآخرين؛ لذا فإن الحكم في هذا الأمر صعب، خاصةً لمن لا يصلون إلى المصادر الإسلامية الأصلية أو لا يلتجأون إليها؛ بل يستخدمون مصادر وأفكاراً مطروحة في كتابات بعض الكتاب المعاصرين السطحيين، التي غالباً لا تقوم على أساس متينة رصينة، بل هي قائمة على التخيّم والتبرير لكلام كتاب الصوفية.

تقوم التيارات الصوفية المعاصرة اليوم بتنفيذ السمع والأناشيد المصحوبة بالموسيقى، وتعتبرها عبادة ووسيلة للنحو إلى المولى عزوجل ورفع درجاتهم، بينما يسارع آخرون إلى رفضها. وهذا الأمر يسبب حيرة للشباب والمتعلمين في هذا المجال، وتصبح آذانهم مشتتة ومضطربة. لذلك، فإن شرح هذه القضية بشكل مدقّع بالحجج من حاجات عصرنا، وسيكون ذا فوائد للمجتمع وخاصة لأهل البحث والدراسة.

#### أسئلة البحث:

يعتبر السمع أحد المفاهيم المهمة في التصوف الإسلامي، وقد أثار جدلاً واسعاً بين الفقهاء والمتصوفة حول مشروعيته وضوابطه. ومن هذا المنطلق، يسعى البحث إلى الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما هو مفهوم السمع في التصوف الإسلامي، وما هي دلالاته اللغوية والاصطلاحية؟
- ما هي أنواع السمع المختلفة، وكيف تم التعامل معها في التراث الإسلامي؟
- ما هي آراء الفقهاء وعلماء الشريعة في حكم السمع عاماً، وسماع الشعر مع الموسيقى خاصةً؟
- كيف نظر كتاب الصوفية إلى السمع، وهل يمكن اعتباره وسيلة للتقرب إلى الله؟
- ما هي الضوابط والشروط التي وضعها العلماء للسماع الجائز؟
- كيف يمكن التوفيق بين الآراء المختلفة في مسألة السمع؟

#### فرضية البحث:

يفترض هذا البحث أن السمع في التصوف الإسلامي مفهوم متعدد الأوجه، تباين حوله الآراء بين الإباحة والتحريم، وأن الموقف منه يعتمد أساساً على نوع السمع وملابساته وشروطه. كما يفترض أن السمع المصحوب بالموسيقى كعبادة يفتقر إلى الأساس الشرعي المتبين، بينما سمع القرآن والمواعظ يحظى بإجماع العلماء.

#### أهمية البحث:

الأهمية العلمية تكمن في كشف جانب مهم من جوانب الخلاف في التراث الإسلامي بين الفقهاء والمتصوفة، بينما الأهمية الشرعية تتجلى في تقديم دراسة تحليلية لأحكام السمع المختلفة في المذاهب الإسلامية. والأهمية الاجتماعية تظهر في المساعدة في معالجة الإشكالات المعاصرة حول الممارسات الصوفية المتعلقة بالسماع، في حين تكمن الأهمية الثقافية في الحفاظ على التراث الإسلامي في هذا الجانب ونقله بدقة.

#### الدراسات السابقة:

تمت دراسة موضوع السمع في العديد من المصادر التراثية والمعاصرة. من أبرز الدراسات التراثية: "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالى، الذي تناول السمع بالتفصيل مع ذكر أدلة المبيحين، و"كشف المحجوب" للهجويري الذي عرض آراء الصوفية في السمع، و"عوارف المعارف" للشهروardi الذي ناقش السمع ضمن أصول التصوف، و"المكاتيب" للإمام الريانى الذي قدم نقداً شديداً للسماع المصحوب بالموسيقى. أما الدراسات المعاصرة فتشمل "تحريم آلات الطرب" للألبانى، الذي ركز على الجانب التحريرى، و"أحكام الموسيقى والغناء" لأحمد حمان، الذي جمع آراء المذاهب المختلفة،

بالإضافة إلى دراسات متفرقة حول الممارسات الصوفية. والجديد في هذا البحث هو أنه تناول موضوع السمع من جميع أبعاده وجوانبه، في حين أن الدراسات السابقة أولت اهتماماً في الغالب لأبعاد وجوانب محدودة من أبعاده.

#### منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التحليلي لتحليل النصوص والمصادر المختلفة لفهم دلالات السمع، والمنهج المقارن لمقارنة آراء الفقهاء والمتصوفة من مختلف المذاهب، والمنهج الاستقرائي لتتبع الآراء المختلفة واستخلاص النتائج، والمنهج النقدي لنقد الأدلة والاستدلالات المختلفة، والمنهج التاريخي للتتبع تطور مفهوم السمع عبر العصور الإسلامية.

#### مشكلة البحث:

تمثل المشكلة البحثية الأساسية في التناقض والتباين الشديدين في المواقف والأراء حول مفهوم "السمع" في التراث الإسلامي، في ثلاثة مجالات رئيسية متداخلة. أولاً، التباين الفقهي-الصوفي، حيث يوجد خلاف عميق بين أغلبية الفقهاء، خاصة أئمة المذاهب الأربع، الذين يحرمون السمع المصحوب بالموسيقى ويعتبرونه لهو محرم، وبين العديد من أعلام التصوف الذين يرون فيه وسيلة روحية للوصول إلى حالات الوجد والتقرب إلى الله، بل ويعتبرونه عبادة في بعض الأحيان. ثانياً، التباين داخل المدرسة الصوفية نفسها، إذ تتراوح مواقف كبار الصوفية بين الرفض القاطع كالشيخ أحمد جام والإمام الرياني، والقبول المشروط بشرط صارمة كالغزالى، والتمييز بين أنواع السمع كالشهوردي والهجويري، والقبول المطلق لبعض الممارسات في الطرق الصوفية اللاحقة. ثالثاً، الإشكالية التطبيقية المعاصرة، وهي كيفية تعامل الفرد المسلم المعاصر، خاصة من الشباب الباحث عن طريق روحي، مع هذه القضية وسط انتشار ممارسات السمع والإنشاد بالموسيقى في بعض الطرق الصوفية باعتبارها جزءاً من العبادة، وتضارب الفتاوى بين من يحرمها مطلقاً ومن يبيحها بشرط، وغياب فهم دقيق للضوابط الشرعية والفروق بين أنواع السمع مثل سمع القرآن، وسماع الشعر الحكيم، وسماع الغناء بالموسيقى.

وتتفرع من هذه المشكلة عدة أسئلة فرعية، منها تحديد موضع الخلاف بالضبط، هل هو في أصل مشروعية الاستماع للأصوات مطرية، أم في استخدام آلات موسيقية محددة، أم في نية الملتقي وجعل السمع وسيلة عبادة، وكيف يمكن تفسير تناقض الروايات عن نفس الشخصية الصوفية مثل الجيد في مسألة السمع، وما هي الضوابط والمعايير التي على أساسها يمكن التمييز بين السمع المشروع والممنوع، ومدى قوة الأدلة التي يستند إليها كل فريق، وال موقف العملي الذي يجنب المسلم الوقوع في الحرام أو البدعة، خاصة مع وجود نية التقرب إلى الله.

باختصار، المشكلة هي الالتباس والاضطراب الفكري والعملي الناتج عن تعدد وتعارض الأقوال والمواقف في قضية "السمع" بين التراث الفقهي والتراث الصوفي، وتتأثر هذا الالتباس على الممارسة الدينية المعاصرة.

#### السمع في اللغة والاصطلاح عامه:

السمع في اللغة يعني الاستماع والسمع، وفي الاصطلاح يقصد به استماع الصوفيين للأصوات الحسنة، ويُطلق مجازاً على الرقص والإنشاد أيضاً: كما ورد في شعر حافظ بمعنى النشيد والنغمة:

"انظر كيف يرقص مُنطلقاً بنوح العود ذلك الذي ما رقص وما استمع للسمع" (غياث الدين، بلا تاريخ: 232)

وفي الأدب العربي، بالإضافة إلى "السمع"، أطلق على إنشاد الأناشيد اسم "الغناء". روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "الغناء خطبة الزنا / أي: الإنشاد الغنائي مقدمة للزنا" (ابن رجب، 1422 / 2: 321).

#### السمع في اصطلاح أهل التصوف:

يُعد السمع لدى أرباب التصوف والعرفان من الوسائل والأسباب التي يُعتبر "الوجد" نتيجة وثمرة لها. أي أن السمع في اصطلاحهم هو استماع كلام أو صوت يُحدث تأثيراً روحانياً في ضمير الإنسان نفسه، وهذا التأثير الروحاني يُسمى "الوجد". فكأن السمع يحدث أولاً، ويُفْضي به إلى "الطرب"، وحين يتحقق "الطرب" يظهر "الوجد"، ويُعتبر السمع الشرارة الأولى للإثارة والوجود.

وأجمع أهل العرفان والصوفية على أن السمع من المقامات (المراتب الروحية)، ولا يختلف الفقهاء معهم في هذه النقطة، بل يرون جميعاً أصل السمع ضروريًا لأن "جميع أحكام الشريعة مبنية على السمع، فلو لم يكن السمع لاستحال ثبوتها. وكذلك الأنبياء عليهم السلام لما جاءوا، بدأوا بالقول حتى آمن المستمعون، ثم أظهروا المعجزة... وبهذه الأدلة، من ينكر السمع على الإطلاق فقد أنكر الشريعة جملة" (الميدى، 1371 هـ). (الهجويري، بلا تاريخ: 456).

#### تأثير السمع على الإنسان نفسياً وعاطفياً:

من الثابت أن استماع بعض الكلام والأصوات يُحدث تأثيراً في نفس المستمع، ولا يمكن لأحد إنكار ذلك، خاصة سماع آيات كلام الله تعالى الذي له أثر عظيم في السامع، وكذلك سمع الأحاديث النبوية التي كلها موعظة وتذكرة وتدعى الإنسان إلى طريق الحق. جاء في "كشف الأسرار" في هذا الصدد:

"ذات يوم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر في زقاق على ناقته، فقرأ قارئ هذه الآية الكريمة: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ \* مَا لَهُ مِنْ ذَافِعٍ) [الطور: 7-8]. فغشى عليه من استماعها وسقط عن ناقته. فحملوه منها إلى بيته، وبقي مريضاً من ذلك الألم مدةً يزوره الناس". (السرهندي، بلا تاريخ: 1/147).

وكذلك، فإن سماع كل أنشودة أو كلام يترك تأثيره - إيجابياً مموداً أو سلبياً مذموماً - في المستمع، ولا يمكن لأحد إنكار مثل هذا التأثير. فسماع الأناشيد التي تحت على التقوى والورع وتذكر الآخرة، سيؤثر في توجيه المستمعين نحو تلك الأمور؛ كما أن الأناشيد ذات المحتوى الذي يحضر على اللهو والفحش واللذة والعربدة وشرب الخمر ستدفع مستمعها نحو هذه المفاهيم والأعمال، لأن لكل كلام رسالة ويترك أثراً في المستمع.

#### أنواع السماع:

كما أشرنا سابقاً، السمع لفظ ومصطلح عام يشمل مسموعات متنوعة، فاستماع آيات القرآن الكريم، والاستماع للأحاديث والروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماع المواعظ والنصائح، والاستماع للأشعار والأناشيد سواءً أكانت بدون آلات موسيقية أم معها، جميعها تدخل تحت مصطلح ومفهوم السمع. على هذا الأساس، وبالنظر إلى موضوع السمع والمسموعات، يمكن تقسيم السمع إلى أنواع على النحو التالي:

#### 1- سمع آيات القرآن الكريم:

يتفق علماء الدين وفقهاء المذاهب الإسلامية وأهل العرفان وكبار الصوفية على جواز واستحباب استماع القرآن الكريم، وأن سمعه من العبادات ووسيلة لكسب الثواب؛ بل إن الصوفيين الفائلين بغير هذا النوع من السمع يرون أن سمع القرآن هو أفضلها وأعلاها مقاماً.

فسماع آيات القرآن الكريم والتدبر فيها مؤثر في القلوب والضمائر، وهو خير طريق للهداية. وبناءً على ذلك، أمر الله تعالى المؤمنين في كلامه بالإذنات والسكوت عند تلاوة آياته، فقال سبحانه: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِبُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأعراف: 204].

وحاج في كتاب "كشف الأسرار" في تفسير هذه الآية المباركة: "السماع حقيقة استماع القرآن، والسماع يُحيي زمان الرجل أكثر مما تُحيي الروحُ الجسد" (المبيدي، 1371 هـ: 832).

وأقدم أثر عرفاني في التصوف مدون باللغة الفارسية هو كتاب "كشف المحجوب"، حيث يرى العلماء أن الهجويري هو "أول مؤلف تناول موضوع التصوف بشكل كامل ومستقل ومفصل باللغة الفارسية". ويقول الهجويري في بيان أفضل أنواع السمع: "أولى المسموعات ما يملأ القلب فوائد وينفي عن الرأس شوائب ويمنع الأذن بلذة، هو كلام الله عز اسمه، ومأمور به جميع المؤمنين، ومكلف به كل الكافرين من الإنس والجن لسماع كلام الله تعالى..." (الهجويري، بلا تاريخ: 456).

وبالتأكيد يمكن القول إن سمع القرآن سمع مطلوب، يرفع السامع المخلص إلى مراتب عالية من القرب، وينقي القلوب من صدأها، ويبسط كالشمس عالم الصدور. هذا السمع هو الذي يعيد الإنسان إلى أصله، والعودة إلى الأصل هي التي تبعد العلاقة عن نفس البشر وتتركها من ظلماتها، وتستقي الظمآن من زمم التوحيد، وتحيي قلوب الموتى بروح التقوى. وهذه العودة إلى الأصل هي ما كان ينشده كبار الصوفية. قال بعض الأكابر في السمع: "حقيقة السمع هي ذكرى النداء القديم الذي انطلق يوم الميثاق من حضرة الجبروت ومحضر الأحادية: (اللست بركم؟)، فاستجابت آذان العباد، ووصل ذوقه إلى أرواحهم. نداء مستودعه في العالم، ومستقره في الجنان. فما هو مشهودٌ فهو دليل، وما هو عبارةٌ فهو عنوان" (المبيدي، 1371 هـ: 277/6).

تأثير القرآن على العباد المؤمنين به أمر مشاهد لا ينكر، وقد يكون شديداً في بعض الأحيان؛ بل إنه قد يؤدي أحياناً إلى موت بعض المستمعين. يُتعلق أن صالح المري قرأ آية من القرآن الكريم في مجلس أبي جهينة (من كبار التابعين)، فصاح صيحة ومات (الكياني نزاد، 1366 هـ: 462).

ولم يكن سمع كلام الله مقصوراً على شريعة الإسلام ودينه، بل كان مقدراً في الأمم السابقة أيضاً. فقد كان داود عليه السلام مشهوراً بحسن صوته، وكان يقرأ الزيور - وهو من الكتب السماوية وكلام الله - فكان يستمع إليه ليس البشر فقط، بل والجن والوحش والطيور. وقد روى عنه:

"كان لداود عليه السلام صوتٌ حسنٌ ونجمةٌ ساحرةٌ، فإذا قرأ الزيور خرج إلى الصحراء، وتصفّ علماءبني إسرائيل معه، وتصفّ الناس من وراء العلماء، وتصفّ الجن من وراء الناس، والشياطين من وراء الجن، ومن ورائهم وحوش الصحراء وسباعها تصغي، والطير في الهواء ترفرف بأجنبتها. فإذا بدأ داود بقراءة الزيور، استمعوا جميعاً، وتوقفت المياه الجارية في مجاريها، وسكتت الرياح وتوقفت من فرط لذة نجمة داود..." (المبيدي، 1371 هـ: 277/6).

## 2- سمع أحاديث رسول الله ﷺ:

يعتبر سمع أحاديث رسول الله ﷺ وكلامه من القيبات والعبادات، باعتبار وجوب اتباعه على كل مسلم، وهذا النوع من السمع يدخل في باب تعليم العلم الديني الذي هو من العبادات. والمشاهد أن كلام النبي ﷺ لا يقرأ عادةً بالتلحين وحسن الصوت، بل يقرأ على شكل موعظة وإرشاد وتعليم لأمور الدين والحياة، ويُصنف إلى إيه. وتوجد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية توجيهات بالاقداء بالنبي ﷺ وأقواله وأفعاله، مما يستلزم الاستماع إلى كلامه. وكان شيخ الإسلام "پیر هرات" (الخواجة عبد الله الأنصاري) - وهو من أعلام التصوف والعرفان الإسلامي - نفسه من أهل الحديث، دائم الانشغال بكتابه وتدريسي وتعليم الأحاديث التي كان يتم عبر سماعها. فكان يتعلم الأحاديث ويندوّنها بالاستماع، ويعلّمها الآخرين ويطبقها.

يقول عن نفسه: "ما احتملت في طلب المصطفى ﷺ ما لم يحتمله أحد. ففي منزل من نيسابور إلى زاود هطل المطر وكانت أمشي راكعاً (أي منحنياً) وقد وضعت أجزاء الحديث على بطني كي لا تبتلي" (جامي، بلا تاريخ: 334). ويقول أيضًا: "كتبت الحديث عن ثلاثة شيخ، كلهم كانوا سنين وأهل الحديث، لا مبتدعين ولا أصحاب رأي، ولم يتبخ هذا لأحد" (جامي، بلا تاريخ: 334).

فنلاحظ أنه كان يدون الحديث، وهذا لا يتم دون استماع. وفضيلة تعليم العلم الواردة في الأحاديث النبوية، والتي تم بالاستماع، تشير أيضًا إلى هذا النوع من السمع.

## 3- سمع الشعر دون موسيقى:

من أنواع السمع الذي لا خلاف في جواز استماعه، سمع الشعر، خاصة إذا احتوى على حكمة وخلا من مفاهيم اللغو والهجاء والهزل وما ينافي التوحيد والعفة والأخلاق الحسنة. ورد في الحديث: "إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لِجَحْمَةً" (السنن الصغرى للبيهقي: 182/4).

ومن واجب المؤمن أن يطلب الحكمة، كما جاء في حديث آخر: "الكلمة الجحمة ضالة المؤمن، فحيث وجدتها فهو أحق بها" (سنن الترمذى، رقم 2687).

لذا، فإن سمع الشعر وإن شاده الآخرين جائز ولا مانع من مشروعيته، خاصة إذا قرئ بصوت حسن وكان محتواه غير مخالف للأصول الأخلاقية والدينية. روى الإمام الترمذى أن الصحابة كانوا ينشدون الشعر في حضور النبي ﷺ ولم يكن ينهم، بل كان يتبسّم أحياناً.

كما روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن شرید عن أبيه قال: "رَدَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ تَوْمَا، فَقَالَ: هَلْ مُعَكَ مِنْ شِعْرٍ أُمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلَتِ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهُزْ (أَيْ انشدِ)، فَأَنْشَدَهُ بَيْتَيْنِ، فَقَالَ: هَيْهُ، ثُمَّ أَنْشَدَهُ مِنْهُ بَيْتَيْنِ..." (تفسير الخازن: 109/5).

وُجِدَ إنشاد الشعر من الصحابة، فَرَوَى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه لما مرض في المدينة بعد الهجرة كان ينشد هذا البيت: **كُلُّ امْرِيٍّ مُصْبِحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شَرَاكَ نَعْلَهِ** (أي: كل إنسان يصبح بين أهله، والموت أقرب إليه من شراك نعله) (إحياء علوم الدين للغزالى: 241/2).

أما إنشاد الشعر بالتطريب وحسن الصوت - وهو ما يسمى السمع - فقد أباحه بعض الصوفية ومارسوه، بل اعتبره البعض قربة وعبادة، كما أشار إلى ذلك الإمام الغزالى في الإحياء (244/2). لكن هذا السمع الشعري عند كبار الصوفية الأوائل كان بدون آلات الموسيقى والطرب، لأن معظم هؤلاء الأكابر كانوا يرفضون الموسيقى.

ولهذا نجد روايات مختلفة عن عدد من كبار الصوفية، وبعضهم أقر السمع وبعضهم رفضه، ويلاحظ أن المقصود بالسمع في حالة الرفض هو سمع الشعر مع آلات الموسيقى، وفي حالة الإقرار هو الأناشيد دون آلات الطرب والموسيقى، كما أشير إلى هذا الرأي في "إحياء علوم الدين" و"كشف المحجوب". ففي الإحياء ذكر أن الجنيد وسري السقطي ذو النون رحمهم الله كانوا يسمعون، بينما روي عن الجنيد في كشف المحجوب أنه كان يوصي بترك السمع (إحياء علوم الدين: 232/2؛ كيانينزاد: 480).

اما في الجانب المقابل، فقد رفض عدد من الفقهاء وأهل الحديث اعتبار سمع الشعر عبادة.

## 4- سمع الشعر مع الموسيقى وآلات الطرب:

من المعلوم أن ما يُنْهَى من سمع وإن شاد مصحوب بالآلات الموسيقى يمكن دراسته من منظوريين: الأول، أنه يُقام لغرض التسلية والترفيه وإدخال السرور على النفس، وهذا النقاش حول هل أو حرمته يعم أفراد المجتمع الإسلامي عامة، وقد قدم كاتب هذا البحث في مؤلفه "الفن من منظور الفقه الإسلامي" دراسة مفصلة حوله. أما النوع الثاني، فهو السمع والإنشاد الذي يمارسه أهل التصوف، ويررون له جوانب إيجابية ويعتبرونه وسيلة لرفع الدرجات والتقارب إلى الله، وهذا ما سنتناوله في هذا المبحث.

### السمع عند الفقهاء:

اعتبر الفقهاء، وخاصة أئمة المذاهب الأربع، السمع بالآلات الموسيقى حراماً ومن الذنب. بل عذوا العازف فاسقاً مردود الشهادة.

• فالإمام أبو حنيفة رحمه الله عَذَّه من الكبائر.

- والإمام مالك عَدَّ هذا العمل من موجبات الفسق.
- والإمام الشافعي رأى أن العازف فاسق مردود الشهادة.
- والإمام أحمد بن حنبل حرم آلات الموسيقى كالمزمار (ناي أسطواني) والناي (اللباك) والسرناي (ناي كبير) والمعزفة (مثل البيانو) وما شابها.

هذا في حين أن جماعة أخرى من فقهاء الكوفة ك أصحاب أبي حنيفة (أبو يوسف والإمام محمد) وإبراهيم النخعي والشعبي وحمد بن أبي سليمان والثوري وغيرهم، أفتوا أيضًا بحرمة الموسيقى. (حمдан، بلا تاريخ: 75-77)

في المقابل، أباح بعض العلماء - ومنهم بعض أهل المدينة (غير الإمام مالك) وبعض أهل الظاهر كابن حزم وجماعة من الصوفية - الإنشاد مع آلات الموسيقى وبدونها. (الشوكتاني، بلا تاريخ: 104/2)

بينما شنَّ عدد من أهل الحديث هجوماً شديداً على من أباح الموسيقى مطلقاً ورددوا رأيهما، كما صرَّح بذلك الشيخ ناصر الدين الألباني في رسالة كتبها في الرد على أقوال ابن حزم وأنصار جواز الموسيقى.

ويلاحظ أن رأي الفقهاء في السمع جاء عاماً؛ لأنه إذا اختلفوا في جوازه كوسيلة للترفيه والتسلية ورأوا تحريمته، فإنه لا يمكن اعتباره عبادة من الأصل.

#### السماع عند كبار الصوفية:

قدم كبار الصوفية آراءً مختلفة حول السمع؛ بل وقد تُنقل عن الشخص الواحد أقوال متباعدة. وربما يعود هذا الاختلاف في الآراء إلى اختلاف أنواع السمع ذاتها؛ فسماع الشعر مع آلات الموسيقى يختلف عن سماعه بدونها. وفي هذا المبحث ننفق ونناقش أقوال وآراء أهل التصوف.

#### رأي سيد الطائفة الجنيد رحمة الله:

تُقل عن الجنيد رحمة الله، الملقب بسيد الطائفة، في المؤلفات التي كُتبت في العرفان والتتصوف الإسلامي روایات متعارضة. ففي بعض المصادر كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالى، تُقل تأييده لجواز السمع وقيمه، حيث جاء فيه أن الجنيد قال: "تنزل الرحمة على جماعة الصوفية في ثلاثة مواطن: عند الأكل... وعند المذاكرة... وعند السمع؛ لأنهم يسمعون بالوجود ويرون الحق". (الغزالى، بلا تاريخ: 2/238)

بينما تُقل في مصادر أخرى عدم جواز السمع عنه. فقيل إنه استحسن اجتناب السمع والغناء وعده من سلام الدين، لذا كان يوصي أحد مریديه قائلاً: "إن أردت سلامة دينك ورعايتك توبتك، فأنكر على الصوفية ما يفعلونه من السمع ولا تَعَذْ نفسك منه..." (كينينثاد، 1366هـ: 480)

ويمكن التوفيق بين هاتين الروايتين بالنظر إلى كيفية السمع وشروطه، وكذلك بوجود آلات الموسيقى أو عدمها. وذلك بأن يحمل القول المميز على السمع الذي لا يحوي محتوى منكراً ويُقام بدون آلات موسيقية، ويُحمل القول الناهي على سمع الشعر المصحوب بالآلات الموسيقى والمحرمات الأخرى.

#### رأي الهجويري في "كشف المحبوب"

تناول الهجويري، مؤلف كتاب "كشف المحبوب"، موضوع السمع بالتفصيل في مؤلفه. ويبدو أنه لا يُحِلّ سمع الشعر مطلقاً إذا كان بدون آلات موسيقية ولا يُحرِّمها؛ بل إنه، كالمؤلف الغزالى، يربط حلّ السمع أو حرمتها بالمحظى وطريقة الإنشاد وغيرها من الاعتبارات. وبناءً عليه، عَدَ بعض الشعر حالاً وبغضه الآخر - الذي يتضمن وصف الخدود والخصور وشعور النساء - حراماً (بورجوازي).

وقد قدم الهجويري أدلةً على عدم جواز السمع منقولاً عن المعارضين له؛ حيث أشَّسَ كراهية وحرمة سمع الإنشاد لدى بعض الصوفية على إجماع الأمة الإسلامية، وهو أحد أدلة الفقه الإسلامي. يقول في هذا الصدد: "الدليل أعظم عندنا على كراهة الغناء إجماع الأمة في زماننا وقبل زماننا على أنه مكره، مع أن قوماً يقولون بحرمته مطلقاً". ويضيف في موضع آخر، مرعاً للاحتجاج: "ولما كان في السمع للعوام فتنة، ومن سمعناها يضطرب اعتقاد الناس، فتحن نشقق على العوام، وتنصح الخواص، وترك السمع غيره (أي غيره على الدين)، وهذا الطريق هو المحمد". (الهجويري، بلا تاريخ: 479)

#### وجهة نظر شيخ الإسلام بير هراة (أبو إساعيل عبد الله الأنباري الهروي):

أما شيخ الإسلام "بير هراة" المشهور في هراة باسم (خواجة عبد الله الأنباري) - الذي كان شديد التأكيد على التمسك بالشريعة، حتى أنه تصادم مع معاصريه في هذا المجال، وكان من أهل الحديث - فقد عَدَ السمع من مبادئ طريق التتصوف والسير إلى الله. فقد جعله الميدان السابع والثمانين في كتابه "منازل السائرين"، واستدل على ذلك بأية كريمة. حيث يقول: "من ميدان الانبساط يزد ميدان السمع" (الأنباري، 1358هـ: 66).

واعتبر الأننصاري السماع من الوسائل، بحيث يكون السماع وسيلةً للوصول إلى "الطرب" (الانفعال الروحي) الذي هو أحد المبادئ، والطرب بدوره سببٌ لحدوث "الوجود". وقد طرح هذه المفاهيم الثلاثة كمبادرتين ثلاثة. فقال في الميدان السابع والثمانين: "من ميدان السماع يزدُّ ميدان الطرب، كما قال تعالى: (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ حَيْرًا لَّا سَمَعُوهُمْ) [الأనفال: 23]. ثم قال في الميدان التاسع والثمانين: "من ميدان الطرب يزدُّ ميدان الوجود، كما قال تعالى: (وَرَتَنْتَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا) [الكھف: 14]" (نفس المصدر: 67).

والملحوظ أَنَّه لا يُستفاد من عبارات وكلام شيخ الإسلام السماع بمعنى الإنشاد الشعري والتطريب؛ بل لا يُستثنُ منه سماع الموسيقى إطلاقاً، بل يُفهم منه بشكل أساسى سماع القرآن الكريم والموعظ وت التعليم العلم. كما يقول في تتمة الميدان الثامن والثمانين (الذي هو ميدان الطرب):

"طرب المستمع هو اطلاعه على نصيه من الحق، وهؤلاء الرجال ثلاثة: طرب المستمع للقرآن يُحيي قلبه، فيُثمر له ثلاثة أشياء: خوفاً من الخطيئة زاحراً، وأملاً في الخدمة باعتنا، وطمأنينة بالحكم مُسْكِنة. وطرب المستمع للعلم يُفرغ قلبه، فيُثمر له ثلاثة أشياء: نزهه في الكوح، وهداية في العقل، وغنى في القلب. وطرب المستمع للإشارة (أى الموعظ والإرشادات) يُبصّر قلبه، فيُثمر له ثلاثة أشياء: عوًنا من المعرفة، وبرقاً من الهيبة، ونسيناً من القرب" (نفس المصدر: 67).

يتضح من هذه العبارات أن المقصود كان ثلاثة أنواع من السماع: الأول سماع القرآن، الثاني سماع العلم، والثالث سماع الإشارة (الموعظة)، وهو ما يمكن حمله على النصح والوعظ.

**رأي الشيخ أحمد جام (الملقب بـ "زنده بيبل" أو "شيخ جام"):**

إن أكثر العارفين صلابةً وأكثر الصوفية حماسةً، الشيخ أحمد جام رحمه الله، ومع أن كلامه وأحواله مليئة بالوجود والخشوع والذوق والوله، فإنه مع ذلك قد ذم سماع صوفية زمانه واعتبره بدعة. يقول:

"سماع البدعة هو أن يقعد قوم وقد أخذهم الطرب، ويكون اسمهم من جملة أهل الصلاح، ولا يستطيعون أن يقيموا في مكان ما مجلس خمر أو فساد علانيةً، فيجلبون قواً (منشدًا) يقرأ ويضرب (يعزف) بأحسن ما عنده، ويتجهون إليه، فيقولون وي�行ون ويسمعون ما يشاؤون، ويربون هو أنفسهم، ويعبدون ذلك عبادة! وأن تعطي المعصية حكم العبادة بدعة عظيمة، وقد حذر الأكابر من هذا... هذا هو سماع المبتدة" (زنده بيبل، بلا تاريخ: 224).

وقد سُمي هذا النوع من السماع "سماع البدعة" لأن فاعليه يقصدون به التواب ويتخذونه عبادة، وتسمية العمل المنكر عبادةً يُسمى في الشريعة بدعة.

أما إذا لم يقصد به العبادة والثواب، بل يجتمعون للعزف والإنشاد، فقد سُمى الشيخ أحمد جام هذا السماع والنشيد "سماع المفسدين": "سماع المفسدين هو أن يقعد قوم ويضربوا المزامير ويقولوا الشعر لهوا ولعباً. هذا لا يصلح، هذا سمع المفسدين، وهو معصية وحرام" (نفس المصدر: 223).

ويقول عن فئة قد فُنت بالنغمات والعزف والأشيد، وانشغلت باللهو والطرب، واتخذت ذلك دينًا ومذهبًا لها، فيمارسون الغزل العاشق مع العزف والإنشاد ويستمتعون به، ولنلا يلومهم أحدٌ ينسبونه إلى العرفان والتصوف الإسلامي:

"أما نحن، فنجتمع قوماً ونأكل كل ما نشهيه، ونجمل بيوتنا، ونجلس شاهداً (محبوباً) فاتن القلب، ونحضر قواً (منشدًا) حسن الصوت، وندماء جسان الوجه جسان الثياب، ونقعد على بساط فاخر، وتنتمد على وسائد من سندس (حرير) وحرير ملون، ونغلس وجهنا بماء ورد فارسي، ونحرق من العود والعنبر ما يكفي ثروة درويش، ونضع الشموع أمامنا، ونبداً بإنشاد غزل حسن، ونرفع أصواتنا بالصياح (النورة) قائلين: حال حصل لنا ووقتنا قد صار طيباً!"

إذا جاءنا درويش بيننا عنده أدنى معرفة بالحقيقة ولم يوافقنا، غضبنا عليه وسميناه روسيا (أى من أتباع الرأى والهوى)! وكل من قال لنا الحق سُمِّيَناه منكراً، ولم نسمح له أن يكون بيننا! وبهذا نبدأ مثل هذا السماع وندخل في الرقص قائلين: حال حصل لنا... لا أدرى! أيكون لنا مثل هذا الحال ومثل هذا السماع ومثل هذا الوقت والقيام حكم المسلمين أم لا؟ هل نستطيع غداً أن نُجيب عن هذا أم لا؟ كما قال الحكيم:

جعلت الرقص دينًا والإيمان غزلاً والشمع دليلاً  
وشفتنا المحبوب (الشاهد) مقصداً وغرضنا وفعلاً حراماً

إذا كان هذا الطريق هو الحق والستة والتقوى والهدى  
فقد صار زمانك - أيها الشيخ - كله انتكاساً وانقلاباً (يدرام)

إذا لم يكن هذا - وحياتي - فأنت قد خسرت  
يا من نصبت فحًا واحدًا وسقطت في الفخ! (نفس المصدر: 228)

**رأي الإمام الغزالى:**

أما الإمام الغزالى - وهو من كبار الفقهاء والتصوف - فقد طرح وتحدث عن السمع والإنشاد أكثر من غيره. وقد أباح السمع سواءً كان مع آلات موسيقية أم بدونها، ورأه نافعاً للصوفية، لكن ليس بإطلاق بل بشرط وأحوال يجب مراعاتها. فبینما قدم في كتابه "إحياء علوم الدين" آراء المعارضين لإباحة السمع، إلا أنه استدل بأحاديث نبوية وروايات عن آخرين لإباحثته، لكنه صرَّح بحرمنه إذا ترتب عليه بعض العوارض. يقول:

"السماع يحرُّم بعوارض، وهذه العوارض إما في القارئ (المُنشد)، أو في آلات السمع، أو في نظم الكلام (الشعر) وترتيب القراءة، أو في حال السامع ومراعاته، أو في كونه من العامة. فالعوارض المحِّمة خمسة:

1. إذا كان المنشد امرأة أو صبياً غير بالغ، ويُخشى من سمع صوته الفتنة، فهذا السمع حرام. وهذه الحرمة من جهة أن النظر والمحادثة مع مثل هذا المنشد حرام، كما أن قراءة القرآن الكريم من المرأة لا تجوز عند خوف الفتنة، وهذا من باب دفع الفتنة الذي تحكم الشريعة بمنعه.
2. العارض في آلات السمع هو استخدام آلات لهو شَرَاب الخمر وأهل الفسق كالمزامير والأوتار وطلب الكووة (يُبيح الغزالى آلات أخرى كالدف والطبل والشاهين).
3. العارض الثالث في محتوى الشعر ونظامه، أي لا يحتوي على فحش أو هجاء أو أمور تخالف العقائد الإسلامية، وألا يتضمن وصف امرأة معينة، وإلا حَرْمَ.
4. العارض الرابع هو أن يغلب الشهوة على السامع، بحيث يحمل ما يسمعه على مقصوده (المراد به) فيثير قواه الجنسية والشهوانية، فيحرُّم عليه السمع حينئذ.
5. العارض الخامس أن يكون السمع من عامة الناس، لا يدفعه السمع إلى محبة الله بل يتمتع به كلُّه وتسليمة. وقد أباح الإمام الغزالى مثل هذا السمع ل لهذا الشخص بشرط ألا يواكب عليه ولا يتخذه حرفةً، فإن فعل ذلك حَرْمَ عليه وكان فاسقاً مردود الشهادة، كما هو مذهب الإمام الشافعى" (الغزالى، 1403 هـ: 248).

#### رأي مولانا جلال الدين محمد البلخي (الرومى):

نسب بعض الناس إلى مولانا ممارسة الرقص والسماع، وأوهماً أن السمع والرقص كانوا مقبولين في منهجه ورؤيته ويمارسان.

فالجماعة الذين يعتبرون أنفسهم في عصرنا الحالى أتباعاً لمولانا، والمُتسببون للطريقة المولوية، والموجدون في بعض البلدان، مشهورون بالرقص والسماع. "درويشو هذه الطريقة يمارسون الذكر الجلي (العلني) مع الموسيقى والرقص، ولهذا يسميهم الأوروبيون "الدرويش الدوار" (كيانينزاد، 1366 هـ: 229).

إن نسبة السمع والرقص إلى مولانا لها طابع روايات أخبارية يتحمل فيها الصدق والكذب. فقد نقل جامي رحمة الله في "نفحات الأنف" حكايةً تدل على هذه النسبة، حيث يقول: "ذات يوم قال (مولانا): صوت الرباب صرير باب الجنة الذي نسمعه. فقال منكراً: نحن أيضًا نسمع نفس الصوت، فلماذا لا نتحمس كما يتحمس مولانا؟ فقال مولانا: كلاً وحاشا! الذي نسمعه نحن هو صوت فتح الباب، والذي يسمعه هو صوت إغلاقه!" (جامى، بلا تاريخ: 462).

وفي مؤلفات أخرى تُسبِّب الرقص والسماع والموسيقى إلى مولانا، لكن بصفة رواية، بل وردت بصيغة التمريض (أي بنقل غير مؤكَّد مثل "يُقال" أو "يُروى"). ففي كتاب "سير العرفان في الإسلام" الذي يقدم الطرق الصوفية وأتباعها جاء: "يُقال إن هذا الطريق والأسلوب (أي الرقص والسماع) مولانا بنفسه لم يريديه، وأنه بعد شمس التبريزى كان يقضى معظم أوقاته في السمع خلال فترة الفراق..." (كيانينزاد، 1366 هـ: 232). وجاء أيضاً في نفس الكتاب: "يُروى أن مولانا كان له معرفة تامة بفن الموسيقى والإيقاع وأصول الألحان، وكان يعزف بنفسه على العود والرباب بصورة جيدة وماهرة، وأنه لَفَنَ هذا الطريق والأسلوب بنفسه لم يريديه..." (كيانينزاد، 1366 هـ: 234).

هذه الروايات منقوله بصيغة التمريض، ولا يُعرف قائلها ولا راويها، ولا تستند إلى دليل قوي. كما أن ذكر آلات الموسيقى والطرب في شعر مولانا، وكذلك شاعرية روح شعره، لا تدل بالضرورة على تعامله الشخصي مع هذه الأدوات أو كونه موسيقياً، تماماً كما ورد ذكر هذه الأمور في شعر شعراء آخرين دون أن يمارسوها هم أنفسهم؛ بل إن ذكر هذه المفاهيم والأدوات قد يكون له طابع رمزي يراد به مجازاً أمور أخرى.

ما نُقل في هذا الباب عن مولانا يتنافض مع الأدلة الروائية الأخرى الموجودة عن هذا العظيم؛ لأن الأفكار المطروحة في مؤلفاته مثل "فيه ما فيه" وغيره تظهر أنه كان دائمًا يبحث على التقى والورع، وهذا يستلزم الابتعاد عن الأمور غير الأخلاقية، التي يعد السمع بالموسيقى عند معظم العلماء من جملتها.

#### رأي الشيخ السهروردي:

يرى الشيخ أبو حفص شهاب الدين السهروردي، الكبير وإنما الطريقة السهروردية، في مؤلفه الشهير "عوارف المعارف" أن السمع من لوازم الطريق. ويستدل بالآيات القرآنية معتبراً سمع آيات القرآن أفضل أنواع السمع، ويقول إن هذا السمع يجلب رحمة الله الكريم على العباد.

ويذكر في شأن سمع الأشعار اختلاف آراء العلماء، قائلاً إن الآراء في هذا الموضوع تتراوح بين الإفراط والتفريط، في بعضهم يعتبر السمع فسقاً بينما يشهد آخرون بحقيقته. ثم ينقل ويؤيد قول أبي الحسن بن سالم، الذي لما قيل له: كيف تناكر السمع وقد فعله من هو أفضل منك كالجندى وسرى السقطى وذو النون؟ أجاب: "ما أنكر السمع، بل أنكر الله". ويضيف الإمام السهروردى أن هذا القول صحيح (السهروردى، بلا تاريخ: 184/2).

ويتبين من كلامه أنه يرى سمع الشعر بدون آلات موسيقية مباحاً، وذلك بشروط ألا يُساء استخدامه، حيث يقول: لا يمكن منع السمع وحريمه مطلقاً، ولا يمكن إياحته مطلقاً.

ويضيف أنه وإن كان السمع والشابة (النای) مباحين في مذهب الشافعى (وكان السهروردى فقيهاً شافعياً)، فإن تركهما أفضل ليهرب السالك من الخلاف، وفي ذلك احتياط محمود.

ويواصل قائلاً: لا ينبغي إنكار سمع القصائد التي تذكر الجنة والنار وتحث على دار الآخرة، أو القصائد التي تُنشد في الجهاد وفي طريق الحج وتقوى عزيمة الناس. أما القصائد والأشعار التي تصف الخدوش والخصور والنساء، فيرى أن سمعها لا يليق بأهل الدين (السهروردى، بلا تاريخ: 187/2-188).

### رأى الصوفية النقشبندية:

يذكر مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامى رحمة الله في "نفحات الأننس"، عند سرد سيرة خواجه بهاء الدين نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية، ما نصه: "سئل: هل في طريقتكم ذكر جهري وخلوة وسماع؟ فقال: لا" (جامى، بلا تاريخ: 5/386).

أما الإمام الربانى رحمة الله - وهو من متأخرى الصوفية ومن أكابر الطريقة النقشبندية - فقد أبدى أشد التشدد في كراهة وعدم جواز الموسيقى والغناء وسماعه. ويستفاد من خلال كلام هذا العظيم أنه في عصره كان السمع والإنشاد بالموسيقى يُمارس من قبل بعض المتصوفة آنذاك على أنه قرية وعبادة، ولكنه كان يعارض ذلك ويراه قبيحاً، كما كتب في أحد مكتوباته الموجهة لأبناء مرشدته:

"لعلموا أن السمع والرقص في الحقيقة داخل في اللهو واللعب، وقد نزلت الآية الكريمة: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي لَهُوَ الْخَدِيثُ لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُغَيِّرُ عَلِمَ وَيَخْدِلُهَا هُرُواً أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [لقمان: 6] في شأن منع النشيد، كما قال مجاهد - وهو من تلاميذ ابن عباس ومن كبار التابعين - المراد بلهو الحديث هو الغناء. وفي المدارك: لهو الحديث هو السمر والغناء، وكان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما يحلفان أنه الغناء. وقال مجاهد في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهُدُونَ الزُّورَ) [الفرقان: 72] أي لا يحضرون الغناء... والآيات والأحاديث والروايات الفقهية في تحريم الغناء كثيرة جداً إلى حد يصعب حصره. ومع ذلك، إذا جاء شخص بحديث منسوخ أو رواية شاذة في إباحة النشيد، فلا يعتقد بها؛ لأنه لم يفت أي فقيه في أي وقت أو زمان بإباحة النشيد ولا بجازة الرقص والطرب... وقد اتخذ صوفية هذا الزمان السذج أعمالاً مشابخهم حجة، فجعلوا النشيد والرقص دينهم وملتهم، وعدوه طاعة وعبادة، (أَوْلَئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهُوَا وَلَعِبًا) (السرهندي، بلا تاريخ: 4/136).

### هل السمع عبادة؟

أصعب بحث يطرح حول السمع هو اعتبار السمع واستماع الشعر بصوت حسن عبادةً ووسيلةً للتقرب وكسب الثواب من الله تعالى، خاصةً عندما يُمارس هذا السمع وإنشاد الشعر والأنشيد مع آلات الموسيقى والطرب. فالاليوم، يقوم عدد من المنتسبين للتصوف والطرق الصوفية بممارسة الإنشاد مع الموسيقى والاستماع إليه، ويعتبرون هذا الفعل وسيلةً للتقرب إلى الله ويعدوه من العبادات.

وبالنظر الدقيق لأحكام وآراء الفقهاء، سواءً فقهاء الصحابة والتبعين وأئمة المذاهب الأربعه وغيرهم، وكذلك كبار الصوفية والمتخصصين في التصوف والعرفان، نجد أن اعتبار السمع عبادةً وتقرباً إلى الله تعالى، خاصةً إذا صحب بالموسيقى وألات الطرب، يحمل موانع ومشاكل ومخاطر عديدة، نناشرها فيما يلي:

لقد اعتبر أئمة المذاهب الأربعه وعدد كبير من الفقهاء الآخرين، وكذلك جماعة كبيرة من أهل العرفان والتصوف، سمع الشعر بصوت حسن - إذا صحب بالموسيقى - حراماً وذنباً، كما سبق وأشارنا إليه ونقلنا كلام الإمام الربانى والشيخ أحمد جام في ذلك. وبناءً عليه، فكيف يمكن لفعل حرام وعذ ذنبًا أن يُعتبر عبادةً ووسيلةً للتقرب إلى الله؟ إن مقرر أهل العرفان والتصوف وكذلك الفقهاء يقولون بعكس ذلك؛ لأنه في نظرهم "من استحسن الفعل الحرام فقد خرج من زمرة الإسلام وصار مرتدًا، فليتأمل ما عظم شناعة تعظيم مجلس السمع والرقص، بل واعتباره طاعة وعبادة!" (السرهندي، بلا تاريخ: 4/136).

علاوة على ذلك، فإن حسن النية لا يجعل الفعل الحرام أو المكره حلالاً؛ وبالتالي لا يمكن بحجة أن ممارسي الموسيقى والسمع قد تكون لهم نية حسنة أن تُجلّه أو نعده من العبادات، كما استدل بعضهم.

أما السمع المصحوب بالموسيقى، والذي يُطلق عليه أصطلاحاً "الغناء"، فقد عُرف في الروايات المنقولة عن الصحابة بأنه يُنبيت النفاق. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الغناء يُنبيت النفاق في القلب كما يُنبيت الماء الزرع" (الخلال، 1410 هـ: 5/73، رقم 1650).

علاوة على ذلك، يجب القول إن ما ذكره العلماء من حكمة تحريم الموسيقى هو أنها لهو ولعب، وتصدٌ للإنسان عن ذكر الله وطاعته. ومن هنا عُرف الغناء في آيات الكتاب الإلهي بأنه لهو، حيث قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي لَهُوَ الْخَدِيثُ لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُغَيِّرُ عَلِمَ وَيَخْدِلُهَا هُرُواً أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [لقمان: 6].

وقد ذكر المفسرون، وعلى رأسهم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، أن "هذه الآية نزلت في شأن الموسيقى وأمثالها"، كما روى ذلك الإمام البخاري عن فقهاء الصحابة. ولما سُئل عبد الله بن مسعود عن معنى "لهو الحديث" في الآية قال: "والله الذي لا إله غيره إنه الغناء". وقد روى هذا الحديث عدد من أهل الحديث كابن حجر وابن أبي شيبة والحاكم وغيرهم.

كيف إذن يمكن لفعل عَدَّ لهؤا وينبئ النفاق في القلب أن يُعتبر وسيلةً للتقرب إلى الله وعبادةً؟!

إن عبادة الله وطاعته والتقرب إليه تعالى لها طرق محددة عينتها الشريعة، ولا يجوز أن تتبع أو تقترب بأي طريقة تشتهيها نفوسنا البشرية. فمحبة الله تعالى مرتبطة باتباع الرسول ﷺ. قال الله تعالى: (فَإِنْ كُنْتُمْ تُجْنِونَ اللَّهَ فَأَتَيْنَاهُنِي يُخَيِّبُكُمُ اللَّهُ وَتَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ) [آل عمران: 31].

علاوة على ذلك، فإن مخالفة السنة النبوية ﷺ، خاصة في أمر العبادات، وكذلك مخالفة منهج فقهاء الأمة الإسلامية الذين هم أتباع الكتاب والسنة، ستكون لها عواقب وخيمة كما يشهد القرآن. قال تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ تَعْذِيرٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَتَبَيَّغَ عَيْرُ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُؤْلِي مَا تَوَلَّ نَصْنُوْهُ حَقَّهُمْ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: 115].

ومن الواضح أنه في عهد النبي ﷺ والصحابة والتابعين، لم يُطرح الموسيقى والغناء كعبادة، بل إنه إذا وُجدت في مناسبات خاصة كالاعراس والأعياد، فكانت للترفيه والسرور - وهو ما أباحه الفقهاء اليوم أيضًا بشروط معينة. لكن طرح السماع والموسيقى كعبادة لا يقوم على أي أساس، وهو مخالفة لسنة النبي ﷺ ومنهج الصحابة والتابعين ورأي مجتهدي العالم الإسلامي. وقد عَدَ العلماء هذا بمثابة اختراع دين جديد، دين ينافق إجماع المسلمين؛ لأن رأي الفقهاء في حضور مجالس اللهو والسماع - كلها وتسليل - مختلف فيه، وقد ذهب معظم العلماء إلى عدم جوازه، فاعتبروا أمر من جملة اللهو عبادة يُعدُّ اختراعاً لدين جديد.

لقد وضحت الشريعة طرق تزكية القلب والتقرب إلى الله تعالى بياًًاً واضحاً، ولم تُعَذِّف في أي موضوع الموسيقى والسماع وإنشاد الشعر وإنجاد الأغانى كطريقة للعبادة والتزكية والتقرب. فقد روى النبي ﷺ في الحديث القدسي عن الله تعالى أنه قال: "... وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلىه مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إلىي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيه، ولئن استعاذه لأعيذه..." (البخاري، 1422هـ: 6502، رقم 105/8). هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري.

يُلاحظ أن أفضل طريق للتقرب إلى الله هو أداء الفرائض، ثم بعد إكمالها أداء النوافل، وطريقة أداء هذه النوافل محددة ومعينة في الشريعة، ولا يمكن أبداً أن تُدرج الموسيقى والسماع ضمن العبادات. ومن هنا عَدَ الإمام الشافعى السماع كعبادة من الأمور التي ابتدعها واحتزروا الزنادقة (الألباني، 1426هـ: 163).

إن اعتبار بعض المتصوفة للسماع وسيلةً لنزول الرحمة الإلهية لا يقوم على أساس ديني، ولا يتوافق مع الأصول الشرعية، فلا يوجد في أي من الآيات أو الأحاديث ما يدل على ذلك. بل إن قراءة القرآن الكريم وذكر الله تعالى، ودراسة وتعليم القرآن والسنة، هي الوسائل المعرفة لنزول الرحمة وطمأنينة القلب، وفي مثل هذه المجالس تننزل ملائكة الرحمة. قال النبي ﷺ: "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِّنْ بَيْوَتِ اللَّهِ، يَبْلُوْنَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُوهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا تَرَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشَيَّتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرُهُمُ اللَّهُ فِيهِنَّ عَنْدَهُ...". (مسلم، بلا تاريخ: 2074/4).

فيتضح أن وسيلة نزول الرحمة هي كلام الله تعالى وتلاوته وتعلمه، وليس الموسيقى والسماع. وقد عَدَ علماء الدين كالأمام القرطبي وابن الصلاح والإمام الشاطبي وغيرهم، السماع كعبادة بدعة، بل واعتبره بعض العلماء أقبح من ارتكاب المعاصي؛ لأن مرتکب المعصية قد يتوب وهو يعلم أن عمله خطيئة، أما المبتدع فيظن أن عمله صحيح ويستحسنه بل ويعتبره عبادةً وتقريراً، ولا يتوب منه أبداً.

وأهم ما يجب قوله ومعرفته في باب استدلالات أنصار السماع كالإمام الغزالى وغيره، هو أن أدلة لهم - سواء من الروايات والأحاديث النبوية أو أفعال الصحابة والتابعين - لا تثبت جواز السماع والغناء كتقرب وعبادة، ولا يمكنها إثبات ذلك. بل إن الأدلة تثبت أن سماع الشعر واستئمامه دون آلات طرب أو مع بعضها، في أوقات محددة ومعينة أيام العيد والسرور، هو الأمر الجائز. بينما سماع الصوفية لا يُطرح كلها وتسليل، بل يعتبرونه من العبادات ووسائل التقرب. فالتدقيق في كلام الإمام الغزالى واستدلالاته يظهر أن أدلة لا تتطابق النتائج؛ لأن الأدلة لإثبات جواز أصل الغناء والسماع الذي لم يُطرح كعبادة، وهذا أمر آخر، أما النتائج التي يقدمها ذلك الإمام الجليل فهي السماع تقرب وعبادة، وأدلة لا تثبت ذلك.

وما يجب قوله هو: إذا تُسبِّب الاستماع أو ممارسة السماع والموسيقى إلى شخص أو مجموعة من مشايخ الصوفية، وحتى لو ثبت ذلك، فلا يمكن الاستدلال به على جواز السماع والموسيقى كعبادة؛ لأن فعلهم لا يمكن أن يثبت حكماً شرعاً، إذ "عمل الصوفية في الحل والحرمة ليس بحجة، وليس يكفياناً أن نعذرهم ولا نلومهم ونفوض أمرهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إن المعتبر هنا هو قول الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف والإمام محمد، وليس عمل أبي بكر الشبلبي وأبي الحسن النوري" (السرهندي، بلا تاريخ: 136/4).

الخلاصة:

إن تقديم نتيجة وحكم قاطع بشأن السماع عمل صعب؛ لوجود آراء ونظريات مختلفة ومتنوعة في هذا المجال، وهذا الموضوع يحتاج إلى بحث أعمق وأوسع. ولكن مع ذلك، يمكن من خلال ما نُوقش بإيجاز الوصول إلى نتائج نعرضها فيما يلي:

- سماع آيات القرآن الكريم واستماعها ليس جائزًا فحسب، بل هو أفضل أنواع العبادة. وتحسين الصوت في تلاوة القرآن الكريم جائز، وقد وردت في ذلك روايات تدل على استحبابه، ولا يختلف في جواز قراءته وسماعه أي من الفقهاء أو أهل العرفان والصوفية. وكذلك لا خلاف في سماع الأحاديث النبوية واستماعها، وإن لم يُر سماعها بالإنشاد ولم ينشر.
- سماع الشعر دون آلات الطرب جائز عند الجميع، وذلك بشرط أن يكون القصد منه إفادة المعاني، وألا يحوي مفاهيم تخالف العقائد الإسلامية أو القيم الأخلاقية. أما إذا فُرِيَ بصوت حسن لكن دون آلات موسيقية لغرض التسلية وإدخال السرور على النفس، دون اقتداء بذلك بعوارض تحالف الأخلاق، فقد أجراه البعض. ولكن إذا قصد منه العبادة والتقرب، فهنا توجد اختلافات في الرأي؛ فجماعة الإمام الغزالى وغيره رأوه جائزًا، بينما عدّه آخرون بدعة.
- أما سماع الشعر مع الموسيقى وآلات الطرب، فقد حرمَه جمهور الفقهاء وأئمة المذاهب الأربعة – إلا في حالات خاصة مثل يوم النكاح وعرس العرسان وأيام العيد وختان الأطفال، وشريطة لا تُستخدم آلات طرب أهل الفسق. وهذا الحكم بالإباحة في الحالات المذكورة مشروط بأن يكون الفعل لغرض التسلية وإدخال السرور والإعلان عن النكاح والزواج. أما إذا وقع السماع بالآلات الطرب بقصد العبادة والتقرب، فإن الفقهاء لا يعدون ذلك عبادة، بل حرماً وبدعة في الدين، ويوجبون الاجتناب عنه.
- وقد عدَ معظم كبار الصوفية أيضًا السماع بالآلات الطرب والموسيقى كعبادة أمرًا غير صحيح، كما عرضنا آراء الشيخ أحمد جام والإمام الريانى وغيرهما. لكن الإمام الغزالى انفرد في هذا الباب واعتبره أمرًا مؤثرًا في جلاء الروح، وإن كان هذا العظيم قد وضع شروطًا للآلات والأحوال، وحدَّر من ممارسته في بعض الحالات وأفتى بتحريمها.

#### رأي الباحث واقتراحه:

على الرغم من أن كاتب هذا المقال له دراسات لا بأس بها في مجال العرفان والتتصوف الذي يثيري الأدب الفارسي، إلا أن أساس فكره يتشكل من الفقه الإسلامي الثري (بمفهومه العام)، ويجيز لنفسه إبداء الرأي واقتراح حول هذا الموضوع.

إن اجتناب الشبهات من لوازم التقوى والورع، وهذه التقوى والورع نفسها هي وسيلة رفع الدرجات والتقرب إلى المولى.

وحيث توجد آراء مختلفة حول سماع الشعر بالآلات الطرب، وقد عدَّ معظم الفقهاء والعلماء الدينيين وأغلب كبار الصوفية مكرهًا أو حرماً، فإنه من الواجب على الأقل – كاجتناب للشبهات – الابتعاد عن مثل هذا السماع: لأن طرق التقرب إلى الله تعالى كثيرة، ويمكن التقرب إليه تعالى بأداء العبادات التي أجمع الجميع على جوازها وهي المسنونة في الشريعة الإسلامية. إن تجنب الأمور المشتبهة والمختلف فيها، والإقبال على الأعمال والعبادات التي يتყى الجميع عليها، يضمن سلام الدين وسعادة الإنسان، وهو طريق لا يشعر فيه المرء بالخطر، وهذا هو المقصود الذي أوصى به العلماء. وقد ذكرنا سابقًا في هذا الصدد كلام الهجوبي وسيد الطائفنة الجنيد رحمهما الله.

هذا هو حكم الفقهاء: إذا خرج محل النزاع بين العلماء من دائرة التحرير، فإنه لا يخرج من دائرة الشبهة. وكمالو الإيمان يقفون حيال الأمور المشتبهة وينجذبونها، كما جاء في الحديث النبوى: "...فَمَنْ أَنْقَى الشَّبَهَاتِ أَسْتَبَرَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّبَهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ" (رواه البخاري ومسلم).

وبالتالي، فإن الاجتناب عن السماع والإنشاد الذي يُطرح كعبادة ويقع تحت لوم ونقد العلماء الدينيين، أولى وأوجب، خاصةً لمن أراد أن يكون من عباد الله الخواص ويسير في طريق العرفان والتتصوف، وهؤلاء يجب أن يكونوا أكثر تقوى وورغاً من عامة الناس؛ إذ قيل: "حسنات الأبرار سينات المقربين".

#### المصادر

- القرآن الكريم
- ابن رجب الحنفي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب. (1422 هـ - 2001 م). رواي التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنفي).
- جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية: دار العاصمة.
- الأنصارى، الخواجة عبد الله. (1358 هـ ش). منازل السائرین (المعروف بـ "صد ميدان"). طهران: طهوری.
- الألبانى، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح. (1426 هـ / 2005 م). تحرير آلات الطرب. الناشر: مؤسسة الريان، بيروت، لبنان / دار الصديق، الجبيل، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة.
- البخارى، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم. (1422 هـ). صحيح البخارى. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة.
- البىهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى. (1410 هـ - 1989 م). السنن الصغرى للبيهقي. المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، كراتشي - باكستان: جامعة الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى.
- بورجوادي، نصر الله. "الشعر العاشق: الفارسي". <http://www.persian-language.org/Group/Article.asp?ID=1107&P=1>
- الترمذى، محمد بن عيسى بن سورة. (1395 هـ - 1975 م). سنن الترمذى. تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرين، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي.

- 9- الخلال البغدادي، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون. (1410هـ - 1989م). السنة. المحقق: د. عطية الزهراني، الطبعة الأولى، الرياض: دار الراية.
- 10- جامي، الشيخ أحمد (بلا تاريخ). أنس التائبين. طهران: نشر إحسان.
- 11- جامي، عبد الرحمن (بلا تاريخ). نفحات الأنس. إيران: انتشارات محمودي.
- 12- حمدان، أحمد بن عبد العزيز (بلا تاريخ). أحكام الموسيقى والغناء. جدة: دار المجتمع.
- 13- الخازن، علي بن محمد (بلا تاريخ). تفسير الخازن. مصر: المكتبة التجارية الكبرى.
- 14- السرهندي، أحمد بن عبد الأحد، الإمام الرياني (بلا تاريخ). المكاتيب. باكستان: أمير تستر، طبعة مجدية.
- 15- السهروردي، أبو حفص عمر بن محمد (بلا تاريخ). عوارف المعرف. دمشق: الدرويشية.
- 16- الشوكاني، محمد بن علي (بلا تاريخ). نيل الأوطار. لاهور: أنصار السنة.
- 17- الغزالى، أبو حامد محمد (1403هـ). إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.
- 18- غياث الدين (بلا تاريخ). غياث اللغات. لاهور: مطبعة رأي صاحب.
- 19- القشيري النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحاج (بلا تاريخ). صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- 20- كيانينزاد، د. زين الدين (الطبعة الأولى 1366هـ ش). سير التصوف في الإسلام. طهران: انتشارات إشرافي.
- 21- المبidi، أبو الفضل رشيد الدين (1371هـ ش). كشف الأسرار. طهران: أمير كبير.
- 22- الهجوي، علي بن عثمان (بلا تاريخ). كشف المحجوب. طبعة بخاري.